مقدمة
مركز الحضارة للدراسات السياسية

يمثل **الأستاذ طارق البشري** علامة فكرية متميزة في مصر والأمة العربية الإسلامية؛ سواء من حيث مستوىٰ القضايا التي يتناولها أو منهج النظر والمعالجة الذي يتميز به. وفي هذا الكتاب يتجلىٰ هذا التميز بمستوييه ضمن مجموعة متساندة ومتكاملة من الافتتاحيات التي قدم بها **الأستاذ البشري** لحولية (**أمتي في العالم**) والتي تعبر بدورها عن عمل علمي وبحثي متميز آزره **البشري** رؤية وتناولا.

تأتي فكرة **حولية** (**أمتي في العالم**) -والتي بدأ العمل بها عام 1997 وصدر منها حتىٰ 2013 **أحد عشر عددا** منها عدد خاص عن «**الأمة في قرن**»- محاولةً لتجديد الوعي بالأمة الإسلامية مستوًىٰ للإدراك والبحث العلمي من ناحية، كما هي ملتقىٰ للانتماء والتكامل من ناحية ثانية، ومحل للفاعلية الحضارية ضمن عالم اليوم من ناحية ثالثة. وبنت هذه الحولية منهج نظرها في قضايا الأمة الإسلامية علىٰ ثلاثية عالم الأفكار وعالم النظم والمؤسسات والرموز وعالم الأحداث والتفاعلات، سواء داخل أقطار الأمة أو فيما بين بعضها البعض أو في تعاطيها مع العالم الخارجي؛ بحيث تغطي أكبر مساحة ممكنة من مجريات العالم الإسلامي وأحواله المتجددة.

ومن ثم تناولت أعداد **حولية** (**أمتي في العالم**) موضوعات متعددة

ومتنوعة لكنها متواصلة، يربط بينها الحالة العامة التي تشهدها الأمة الإسلامية منذ نهايات القرن العشرين وخلال العقد الأول من القرن الحادي والعشرين وحتىٰ اليوم. فبدأت بالنظر في (**العولمة**) بوصفها الإطار العالمي لمرحلة نهاية التسعينيات الذي عصف بالجميع؛ لتؤكد أكثر صدقية عنوان الحولية؛ وهو أن أمة الإسلام لا تعيش بمعزل عن العالم الراهن بقدر ما هي في قلب تفاعلاته وتحولاته الكبرىٰ. تلا ذلك اهتمام بطبيعة **(العلاقات البينية الإسلامية-الإسلامية)** وأهم محدداتها وخصائصها التي تكشف عنها أحوال وأحداث اللحظات الأخيرة من القرن العشرين.

جاء العدد الخاص **(الأمة في قرن)** والذي صدر في ستة أجزاء كبيرة ومتكاملة ليغطي مساحة العددين الثالث والرابع؛ وليقدم نظرة في حصاد حركة الأمة الإسلامية، في محاور عديدة، تؤشر علىٰ أن الأمة عاشت ولا تزال تعيش أزمة واسعة الأطراف متعددة الأبعاد، مشدودة بين ماضيها وحاضرها ومستقبلها، وبين الأصيل من أفكارها والدخيل، وبين طبائع الاستبداد وتحكم القلة ومطالب الديمقراطية والخيار الشعبي، وبين مصالح الداخل واستقلاله وحصار الخارج واختراقه للداخل واستغلاله، وأن الطريق إلىٰ المستقبل لم يصبح بعد معبدا، بل لا يزال يتطلب مزيدا من الاجتهاد والتجديد.

ثم توالت قضايا محنة الأمة في القرن الحادي والعشرين؛ بداية من تصدير الأزمة الأمريكية المتعلقة بواقعة الحادي عشر من سبتمبر 2001 **(الذي سماه البشري باليوم الأمريكي** وذكر أنه ليس من أيامنا أيام العرب) إلىٰ ربوع العالم الإسلامي باسم « **الحرب الدولية علىٰ**

الإرهاب » والتي توجهت بداية إلىٰ **أفغانستان** ومحيطها (العدد الخامس)، ثم تحولت بعدوانها إلىٰ العراق لاحتلاله من قبل أمريكا وتحالفها الدولي عام 2003 (العدد السادس)، ثم الهجوم السياسي والثقافي علىٰ الأنظمة والمجتمعات المسلمة بضرورة (**الإصلاح** الشامل السياسي والتعليمي والديني) ولو من الخارج، ضمن ما أضحىٰ يسمىٰ باستراتيجية (الشرق الأوسط الكبير) 2004-2005، وتوازيا وتواليا مع حالة عالمية ترفع راية (الحوار بين الحضارات) عملت فيها الأهداف السياسية علىٰ التلبس بأثواب ثقافية حقيقية واستغلالها والانحراف بها (العددان السابع والثامن).

جاء العدوان الإسرائيلي علىٰ غزة 2008-2009 فيما أسماه الأستاذ البشري (الحرب الثانية عشرة) ليكمل المرحلة الثانية من الاستراتيجية الدولية للحرب علىٰ الإرهاب، لكن هذه المرة علىٰ قوىٰ المقاومة الوطنية والإسلامية وبقيادة إسرائيلية سبقها العدوان علىٰ لبنان وحزب الله اللبناني 2006... ليؤكد من كل طريق أن الأمة العربية والإسلامية تحت العدوان المتصل من قبل الغرب والكيان الصهيوني الذي زرعه في أحشائنا، الأمر الذي يجعلنا نعيد النظر في طبيعة العلاقات مع (الآخر) باتساع مستوياتها وأبعادها والنهج الأمثل في التعامل معها (العددان التاسع والعاشر).

لقد جاءت الثورات العربية منذ نهاية عام 2010 وعبر العام 2011، وفي قلبها ثورة 25 يناير المصرية، لتنضاف ضمن **حولية أمتي في العالم** لثنائية (التحديات والاستجابات)، وتحل موضوعا للبحث والدراسة خاصة في مدىٰ إمكان أن يتولد عنها تغيير ونهوض حضاري

حقيقي: ثقافيا واجتماعيا وسياسيا واقتصاديا! وفي هذا المقام قدم الأستاذ البشري ملاحظته الجوهرية والخطيرة والتي مفادها أن الثورة المصرية –ومن ورائها الثورات العربية المزامنة لها– آفتها الأساسية في «النخبة السياسية والمثقفة» والتي تكاد تتحول حجر عثرة أمام طموحات الجماهير والأجيال الجديدة (العدد الحادي عشر).

*****

لقد أسهم **الأستاذ طارق البشري** في بناء الأساس الفكري لهذه الحولية (أمتي في العالم) منذ افتتاحه لعددها الأول وحتىٰ عددها الأخير، ومثلت افتتاحياته تأطيرا وتتويجا للخطوط العريضة التي تتناولها الدراسات والبحوث والتقارير في كل عدد، لكنها من ناحية أخرىٰ –ونظرا لطبيعتها المنهجية المائلة إلىٰ التنظير واستلهام العبرة التاريخية العامة واستخلاص قواعد حركة القوىٰ وتفاعلاتها– مثلت في ذاتها نصا خاصا عن « **أحوال الأمة الإسلامية وفي قلبها مصر والعروبة عبر عقد ونصف عقد من الزمان** »، فهي متابعة حكيمة ومراجعة عميقة لمفاصل من تطور وضع الأمة الإسلامية عبر هذا المنحنىٰ التاريخي الخطير؛ بإيجابياته وسلبياته.

ولذا فمن المهم إلقاء بعض الضوء علىٰ أهم ما طرحته هذه الافتتاحيات من رؤىٰ ودروس نرىٰ أنها تبقىٰ من ضروريات تجديد الوعي والسعي اليوم وغدا.

أسس **المستشار البشري** لمدلول (أمتي في العالم) بأنها الأمة وجودا وانتماءً ومصيرًا، والتي لا تستبعد بالضرورة وجودا أو انتماءً آخر، لكنه حق من حقوق أبناء هذه الأمة، كما أن من حق كل إنسان أو

مجموعة بشرية أن تكون لهم أمتهم وأن يعبروا عن انتمائهم، ومن حقهم بل واجبهم أن يتابعوا أخبار ووقائع هذا الكيان الكبير؛ هذه المتابعة التي تسهم في التحرر من حالة الاغتراب الممتدة منذ عهود الاستعمار الأجنبي لبلادنا. ومن هنا يشير **الأستاذ البشري** إلىٰ ضرورة ردم الفجوة بين وعينا بنظام عالمي كبير لكنه رافض لأي تجمع إقليمي سياسي علىٰ أساس إسلامي، ووعينا بما يتيحه لنا من كيان قاصر تمثله الدولة القطرية غير المنسجمة مع حقائق وجودنا، ولا يكون هذا إلا بالوعي بالأمة.

"إن إنعاش الإدراك بالوجود الإسلامي الجماعي، هو أمر يفيد نفعًا محضًا، هو ربح بغير خسارة، وذلك إذا كنا نزن الأمور بالكسب والخسارة، وهو من وجهة أخرىٰ إنعاش للذات الحضارية وإدراك للمميز الثقافي وإثراء له بالتنوع ". ولكن ارتباك مفهوم الأمة لدىٰ العرب والمسلمين اليوم قضية تاريخية لها عواملها التي **يقف أمامها البشري** ليقرر أن الأزمة الحقيقية تقبع في المسافة بين ما نؤمن به من مشترك جامع، وبين ما نفعله من نشاط سياسي متشرذم بل متضارب.

إن ضعف الوعي، ثم انفصاله عن السعي، خلق أزمة تالية تتعلق بانهيار إرادة الدول وحكومات دول الأمة في أن تقاوم واقعها الضعيف في الداخل والخارج، الأمر الذي غذاه ونماه واقع الاستبداد السياسي في الداخل، والزهد في العلاقات البينية الإسلامية-الإسلامية. ولذلك **يرفض البشري** ما أرادته الولايات المتحدة من جعل تاريخ "11 سبتمبر 2001" تاريخا عالميا، وبوجه خاص تاريخًا إسلاميًّا عربيا "؛ لفتًا منه إلىٰ ما يعنيه هذا من تبعية واستتباع، وترحيل للأزمات —

مسئولياتها وحلولها-اعتادت عليه قوىٰ الاستكبار، يشير إلىٰ أن ضعف الإرادة السياسية هو ما أطمع فينا هذه القوىٰ، حتىٰ لم تعد تهتم بوجود صياغة فكرية لشرعية دولية تغطي به عدوانها علىٰ ربوع أمتنا.

أمتي في العالم تعيش محنة وأزمة ، من خارجها وفي علاقات مكوناتها البينية، لكن المحنة الحقيقية التي تواجه الأمة تنبع من داخلها. **هذه هي الحقيقة المحورية في رؤية الأستاذ البشري لأمتنا في عالم اليوم**. فليست محنتنا في ظاهرة الاستعمار الغربي الذي خبرناه تهديدا وحصارا وتغلغلا وضغوطا علىٰ إرادتنا السياسية ثم احتلالا عسكريا وحكما مباشرا، حتىٰ لو عاود الانقضاض علينا في السنوات القليلة الماضية، وليست محنتنا أيضًا في أننا منقسمون علىٰ الصعيد الشعبي؛ تيارات سياسية أو اجتماعية أو فكرية ثقافية، أو ذوي أديان أو مذاهب أو طوائف أو أقوام.. إن محنتنا صارت في هذا الصدع الذي يصيب الكثير من بلادنا بين الحكومات والشعوب، أو بين الدولة والأمة.

فانتكاس النظم الوطنية للدول القطرية حديثة التكون بعد الاستقلال أفرغها من محتواها السياسي والاجتماعي، وكذلك أفرغت سياسات التنمية والتكامل الإقليمي من مضامينها وغاياتها، فتجدد الخضوع السياسي والاقتصادي للدول الكبرىٰ، لكن هذه المرة باسم "الدولة"، وانفصلت أجهزة "الدولة: الحكم والإدارة " عن "الجماعة السياسية ": أداءً ووظائف وأهدافا، وبالأخص فيما يتعلق بوظيفة "حفظ أمن الوطن " من مخاطر الخارج، الأمر الذي

ظهر كثيرا بصورة دولة تعوق قواها المجتمعية عن تحقيق الاستقلال ومقاومة الغزو الخارجي. **وفي هذا يقول البشري:**

"إن الحكومات صارت تحول دون أن ينهض من شعوبها من يؤدي الوظائف الدفاعية المطلوبة، وأنها صارت تخشىٰ من انتفاضة شعبها علىٰ المعتدين من الخارج؛ بأكثر مما تخشىٰ عدوان الخارج عليها وعلىٰ شعبها... لقد صار أمن الأمة معلقا علىٰ قدرتها علىٰ استعادة سيطرتها علىٰ دولها، ونظم الحكم فيها".

وعليه يرىٰ **الأستاذ البشري** لابد من إدراك أن **"الإصلاح والتجدد في أمتي: صناعة توحيدية محلية وحضارية"**، وأن هذا هو أول شروط الإصلاح الحقيقي: وطنيا صرفا للأوطان، وحضاريا واعيا في شأن الأمة. إننا حين نستعين بالقوىٰ الخارجية علىٰ أوضاعنا الداخلية إنما نكون قد أقررنا علىٰ أنفسنا بأننا غير قادرين علىٰ إدارة شئوننا الذاتية، ولا قادرين علىٰ حماية مصالحنا الداخلية في مواجهة من هم منا، فكيف نكون قادرين من ثم علىٰ حماية مصالحنا وأوطاننا في مواجهة قوىٰ الخارج.

يحذر البشري من إصلاح يترتب عليه صدع في بنية الدولة والمجتمع، ومن **"الإصلاح تحت خط النار"**، وأن الإصلاح بمقاصده ومآلاته، وبمراعاة ظروفه وسياقاته. وهذا ما يتطلب فقها خاصا بالانتقال والمراحل الانتقالية، التي أورثت أمتنا حالة من "النمو المعوق" لا تكاد جملة من التحرر أو التنمية أو الديمقراطية تكتمل حتىٰ تتداخل معها أخرىٰ، وتتأزم في مسيرتها، بلا ثمرة حقيقية. وذلك ليس إلا لتوزع عمليات الإصلاح والتجدد بلا رابط ولا ضابط، ولا

مدخل لذلك بغير المرجعية الشرعية الجامعة إن لم تكن الواحدة الموحدة التي يتشكل بها الضمير (**نحن**).

وفي هذا الإطار تطرح قضية (الإسلام والعلمانية) كمرجعيتين تتصارعان في الأمة منذ نحو القرن من الزمان. فالإسلام ليس مذهبا سياسيا أو اقتصاديا أو اجتماعيا،إنما هو مرجعية تنبثق منها رؤىٰ ومذاهب ونظريات في هذه المجالات، علىٰ أساس الإيمان بصلة الإسلام بالحياة وقدرته العامة علىٰ تنظيمها، الأمر الذي لا يصح مقابلته بمذهب من المذاهب الغربية أو الوضعية، بل هو معين يتعين أن تنطلق منه رؤىٰ الإصلاح وخطواته، ويقاس عليه ما يرد من دعوات ونظم للإصلاح من الخارج.

يتصل بهذا التكوين الفكري المتراكم**إشارة الأستاذ البشري**إلىٰ أزمة الوعي بالذات عبر عيون الآخر، حين نصنف مشاكلنا الذاتية والبينية بمثل ما يصنفها الغرب، ونرتب أولوياتنا علىٰ المنوال نفسه الذي يفعله الغرب، حتىٰ نستخدم نفس أوصافه وكلماته التي اختارها لوصف أحوالنا. وبينما يحضر هذا الخرق الثقافي فينا من زمن، يجد علينا الحوار مع الغرب علىٰ أرضية ثقافية: حوار الثقافات والحضارات،وهذا لا إشكال فيه بحد ذاته، لكنه حين يكون علىٰ حساب الشأن السياسي أو بالأحرىٰ: الصراع السياسي، فإننا نحتاج إلىٰ إعادة النظر فيه.

ففي الحوار الثقافي تتساوىٰ الرءوس بل يسهل أن تطرح الطعون في الإسلام والمسلمين (التعصب، التطرف، الطائفية، الإرهاب...)، من قبيل المقولات والمقولات المضادة، وصراع النصوص والأفكار وما إليه، إذا تغافلنا عن السند السياسي لهذه المقولات التي هي إلىٰ باب

الحروب النفسية والدعائية أقرب، خاصة إذا رضينا بأن نكون نحن وفقط مادة الحوار الثقافي. فإذا ما ضممنا إلىٰ هذا واقع الصراع السياسي والعدوان الجاري علينا بغير انقطاع عبر القرنين الأخيرين والصور التي يتجدد بها اختلف الأمر.

ومن هنا يجب أن نضبط الحوار الداخلي والبيني الخاص بأوطاننا وأمتنا. فالمذاهب والحركات ليست مطلقات إنما هي بنات ظروفها وسياقاتها التاريخية، والغلو والاعتدال لا يخلو منهما مذهب ولا تيار في عالمي الفكر والحركة، ولكل من الأمرين عوامله الموضوعية المحركة له فضلا عن تحليل الأفكار والتوجهات، والقضايا المتجددة تستدعي ما يناسبها في كل مذهب فكري وحركة مجتمعية وسياسية، وهذا ما يتعين أن ندير حواراتنا بشأنه، بدلا من الديباجات والشعارات والكلام المكرور إن دفاعا كان أو هجوما.

ومع هذا النقد والتوجيه لمفهوم وعملية (الحوار)، تأتي أهمية مفهوم وعملية **"المقاومة "**: كعملية أساسية في اللحظة التاريخية الراهنة وكمفهوم مركزي في **فكر الأستاذ البشري** . فالمقاومة هي الاستجابة الطبيعية للعدوان، ومن المهم أولا تثبيت الوعي بها -حقيقة وضرورة وحقا وواجبا- في العقل المسلم المعاصر، ثم إطلاق الطاقات العملية لحركتها في الدولة والمجتمع وعموم الأمة، وكذلك إدراك القوانين الحاكمة لنجاحها أو إخفاقها. وقد جاء العدوان علىٰ غزة 2008 – 2009 ليكشف عن هذا المقام وموقفنا منه بوضوح شديد.

المقاومة في صفحة الأمة تتراوح بين المقاومة العسكرية والتي ربما تنهض بها جماعات وحركات كما علىٰ أرض فلسطين،

والمقاومة الحضارية التي هي مشترك أمتي كبير فيه فروض أعيان وفروض كفايات، لكن المقاومة السياسية التي يلتئم بها صدع الدولة- الأمة تقف علىٰ رأس الموقف. لكنها علىٰ مستوياتها الثلاثة تحمل تأزمات الفصول السابقة من كتاب أمتي في العالم. وهذا هو الهم الثابت في **فكر الأستاذ البشري** الذي يستعرضه هذا الكتاب.

ومن ثم يظهر مفهوم **"الثورة "** الذي قذفت به أحداث أواخر 2010 وما بعدها في عدد من الدول العربية وفي قلبها مصر. فلأول وهلة وبعد هذا الاستعراض لتحديات عقد ونصف العقد من الزمان قد يبدو أن حديث الثورة سيكون ذؤابة الاستجابات الإيجابية ضد التحديات الكبرىٰ للأمة، غير أنه ما كان ليتجاوز مرة واحدة كل هذه الآفات التي دخلت في بنية التفكير والنظم والسلوك في بلادنا. ومن هنا **ملاحظة البشري الأساسية** عن الثورة المصرية وتأزمها بفعل (النخبة الثقافية والسياسية) التي وإن اتفقت للحظة علىٰ إزاحة نظام حاكم، لكنها أبت إلا أن تضيع فرصة البناء أو تعرضها لمخاطر الانقسام.

فقد ورثت مصر بعد عقود من الاستقلال-وكأكثر بلدان الأمة- تركة ضخمة من التخريب والتدمير والتفكيك والإفقار والإضعاف المتعمد من قبل خصوم الأمة في الخارج ومن يأتمرون بأمرها في الداخل، وكان مطلوبا من الثورة أن تخرج الناس من كل هذا بسياسات وبرامج عمل واضحة متوافق عليها. لكن النخبة كررت نفسها، وبدت مستعصية علىٰ ثورة مستحقة ضد طرق تفكيرها التي مكنت للاستبداد من قبل ولم تقاومه بحق، فأعادت طرح همومها الثقافية حيث تتجلىٰ قدراتها في الكلام والسجال الإعلامي، وأهملت الحركة التي تنفع الناس وتمكث

في الأرض، فثارت فتن ثقافية وصراعات أفكار، فاستقطابات سياسية، صنعها عالم افتراضي ومصطنع لا هموم الواقع المعيش وأوجاع الناس، فضلا عن قدرة حقيقية علىٰ مواجهتها.

ومن هنا نبه **الأستاذ البشري** إلىٰ خطورة مثل هذا الصراع علىٰ مصير الأمة لفترات مقبلة، خاصة في (زمن ثورة) حيث يحسب الوقت بقيمته ذهبا، حتىٰ لا ينتهي هذا الصراع إلىٰ الوضع الذي كان عليه الحال من قبل. وهذا للأسف ما بدت الأمور تتجه إليه في الآونة الأخيرة، نسأل الله تعالىٰ العفو والعافية.

وبعد،

فهذه تطوافة عجلىٰ في **أوراق كتبها الأستاذ البشري** عبر نحو خمس عشرة سنة، أردنا أن نلمح غلىٰ قراءتها بتواصلها وتكاملها كالجملة الواحدة. وقد أوضح فيها حقيقة الأمة الإسلامية وحقوقها في عالم اليوم، وأهم التحديات التي تتعرض لها من خارجها والعلل التي تعوقها من داخلها، مشيرا إلىٰ مخارج عدة تتعلق بالوعي والسعي، وتنير أمام أبناء هذه الأمة طريقا هم سالكوه، من الثقة بالذات الحضارية وإمكاناتها، وتجديد الانتماء والولاء لها، وتزكية إرادة الاستقلال عن كل ربقة أجنبية مهما كانت سطوتها، وعدم السقوط في ترهات المشكلات الثانوية وإخراجها عن سياقاتها الحاكمة، وانتهاج المقاومة الحضارية بسعتها سبيلا يسلكه أبناء هذه الأمة عسىٰ الله أن يكف عنا عدوان المعتدين، ويفتح لنا فتحا مبينا.

والحمد لله

مركز الحضارة للدراسات السياسية